انتخابات الخوف والكراهية!

ليس مؤكداً أن الانتخابات الرئاسية تؤسس للجمهورية الثانية فى مصر بالفعل. فلا هذه هى الجمهورية التى ثار المصريون من أجل تحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية فى ظلها، ولا تلك هى الانتخابات التى انتظرتها أجيال عدة منهم باستثناء الصورة الجميلة التى اقتصرت على ساعات فرز الأصوات على الهواء ومتابعتها لحظة بلحظة.

فباستثناء هذا الشكل، الذى يشبه ما يحدث فى بعض الدول الديمقراطية عند فرز الأصوات، لم يكن فى هذه الانتخابات ما يريح أو يطمئن أو يشى بأن مرحلة جديدة حقا فى تاريخ مصر ستبدأ، وأن جمهورية ثانية تبزغ الآن.

فعندما يكون الخوف هو العامل الأول بين محددات التصويت فى الانتخابات، لا يمكن الاطمئنان إلى ما قد يحدث بعدها. وحين تكون الكراهية هى المحدد الثانى لاتجاهات الاقتراع فيها، لابد أن نحبس أنفاسنا قلقا وارتيابا وليس فقط لشدة الإثارة المترتبة على توالى الأحداث وتدفقها وسرعة إيقاعها.

فالقسم الأعظم من الأصوات التى زادها كل من المرشحين اللذين تنافسا فى جولة الإعادة إلى رصيده فى الجولة الأولى- لم يذهب إليه اختيارا وتأييدا، بل خوفا من المرشح الآخر أو كرها لما يحمله من توجهات وما يمثله من اتجاهات.

فقد حصل محمد مرسى فى الجولة النهائية على أكثر من سبعة ملايين صوت إضافة إلى ما ناله فى الجولة الأولى.

وقليل بين أصحاب هذه الأصوات الإضافية هو من اختار مرسى قبولا واقتناعا. فهذه أصوات اضطرارية ذهبت إليه خوفا من أن يعيد أحمد شفيق النظام القديم كما هو أو معدلا فى صورة لا تختلف كثيرا عنه. وبين هذه الأصوات التى ذهبت إلى مرسى كثير يخاف أصحابها أيضا مشروع «الإخوان المسلمين» الذين أخفقوا فى طمأنة القلقين والحد من هواجس الخائفين منهم. ولكن كراهية شفيق وما يمثله من نظام فسد وأفسد وتجبر طغت على الخوف من مرسى، وما يمكن أن يترتب على فوزه فى غياب شراكة وطنية حقيقية.

وقل مثل ذلك بالنسبة للأصوات التى أضافها أحمد شفيق إلى رصيده زيادة على ما حظى به فى الجولة الأولى للانتخابات، وعددها نحو سبعة ملايين صوت.

فلم يحصل شفيق على أى من هذه الأصوات الإضافية دعما له، بل خوفا من توجهات محمد مرسى وجماعته.

وهكذا كان النمط السائد فى جولة الإعادة هو التصويت الاضطرارى السلبى وليس الإيجابى. صحيح أن الاقتراع اضطراراً وليس اختياراً أمر معتاد فى أى جولة إعادة فى انتخابات رئاسية لأن الناخبين الذين أعطوا أصواتهم لمرشحين لا يبلغون هذه الجولة يقترعون لمصلحة مرشح آخر لا يعتبر هو خيارهم الأول.

ولكن الفرق كبير جدا بين أن يكون الخيار الثانى مفضَّلاً بدرجة أقل من الأول، وأن يكون مرفوضاً من الأصل. والوضع الطبيعى فى حالة رفض

من بقيا فى جولة الإعادة هو عدم الاقتراع لأى منهما، أى المقاطعة. وهذا هو ما فعله عدد من الناخبين لا نعرفه، بينما، سلك عدد آخر ممن يرفضون المرشحين الاثنين سلوكا أكثر إيجابية وهو أيضا إبطال الصوت الانتخابى.

ولذلك بلغت الأصوات الباطلة رقما قياسيا زاد على 800 ألف اقترع معظم أصحابها فعلياً لمصلحة الثورة التى رأوا أنها «خرجت» من الجولة الأولى.

غير أن معظم رافضى المرشحين المتنافسين فى الإعادة قرروا الاقتراع لأحدهما خوفاً من الآخر أو كرهاً له.

فقد ورثنا عن تلك الجمهورية تركة بائسة ثقيلة وخرابا مقيما على مختلف المستويات من السياسة إلى الثقافة، مروراً بالاقتصاد والتعليم والصحة وغيرها. ولكننا ورثنا ما قد يكون أسوأ من ذلك وأخطر، وهو نسق القيم السلبية التى تشمل الأنانية والتعصب وإعلاء المصالح الخاصة على المصلحة العامة إلى جانب الخوف والكراهية.

فهذا مجتمع يخاف بعضه البعض الآخر، ويكره الناس فيه كل ما حولهم إلى حد أنهم يبدون كما لو أنهم يكرهون أنفسهم فى بعض الأحيان. ويبدو الجميع كأنهم فى حال تحفز واستنفار كل تجاه الآخر.

ولذلك يصعب التطلع إلى جمهورية ثانية حقا بدون التخلص من هذا الركام بما يتضمنه من قيم سلبية كان بعضها هو المحدد الرئيسى للانتخابات التى كان مفترضاً أن تؤسس تلك الجمهورية.